القاعدة الاقتصادية : الغذاء

بعد أن استعرضنا بناء الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم للقاعدة الروحيّة في مكّة والتي استمرّ بناؤها في المدينة أيضاً، دون توقُّف، أو انقطاع. وكذلك القاعدة الأمنية، العسكريّة، في المدينة المنوَّرة، للمحافظة على أرواح المسلمين، ودينهم، وممتلكاتهم، ننتقل إلى الحديث عن بناء الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم للقاعدة الاقتصادية للدولة الإسلامية، الفتيّة، النامية، بشكل منظّم.

في نفس الوقت الّذي عمل فيه الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم على بناء القوّة العسكرية، الضاربة، الرادعة، والمدافعة، في المدينة، عمل على بناء قاعدة اقتصادية متينة، بشكل منظّم، لأنّه صلّى الله عليه وسلّم رأى بثاقب نظره، أنّه لا غنى لعنصر الأمن عن الغذاء، ولا لعنصر الغذاء عن الأمن، لهذا عمل على تأسيسهما، وتقويتهما معاً، ويداً بيد، لأنّ كلّ واحد منهما، يساند الآخر، ويقوِّيه، ويدعمه.

وأوّل عقبة واجهت الرسول صلّى الله عليه وسلّم في هذا المجال، هي، وضع المهاجرين الاقتصادي الصعب، لأنّهم، كما مرّ معنا، هاجروا إلى الله، وتركوا أموالهم، وممتلكاتهم، وراءهم في مكّة، لأنّ الإيمان الخالص لا يقف في وجهه شيء من حطام الدنيا، وقصة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، الّذي أنفق أمواله الطائلة، قبل الهجرة، في سبيل الله، وقصة صهيب بن سنان، الّذي افتدى هجرته من قريش بكلّ ماله، ليستا بعيدتين عنّا. ولا بأس بإعادة قصّة صهيب هنا للتّذكرة. "إنّ صهيباً حين أراد الهجرة، قال له أهل مكّة: أتيتنا صُعلوكاً، حقيراً، فتَغيَّر حالك. قال: أرأيتم إن تركت لكم مالي، أمُخَلُّون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم. فخلع لهم ماله.

فبلغ ذلك النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: (ربح صهيب! ربح صهيب!)"[٤٤٦]
وفي صهيب نزلت آية: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ، وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ.)[٤٤٧] (البقرة ٢٠٧/٢)

ولكي لا يشعر المهاجرون بأنّهم غرباء، وعالة على إخوانهم من الأنصار، آخى الرسول صلّى الله عليه وسلّم بين مهاجريّ وأنصاريّ، وقال لهم: (تَآخَوْا في اللهِ أَخَوَيْن أَخَوَيْن.)[٤٤٨]
ووهبت الأنصار لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم كلَّ فضل في خِططِها. وقالوا له: إن شئتَ، فخُذْ منازلنا! فقال لهم خيراً. وخَطَّ لأصحابه في كلّ أرض ليست لأحد، وفي ما وهبت له الأنصار من خِططها.
وأقام قوم من المسلمين لم يمكنهم البناء بقباء على من نزلوا عنده. وكانت الأنصار أشِحّاء على من نزل عليهم من المهاجرين. أي أنهم متمسكون بهم ولا يتنازلون عنهم لأي أحد أو بأي ثمن.
وكان الّذي آخى بينهم، تسعين رجلاً، خمسة وأربعين من المهاجرين، وخمسة وأربعين من الأنصار.[٤٤٩]

والأُخُوَّة في الله أسمى أنواع الأُخُوَّة، هذه الأخوَّة استمرّت ولم تنقطع طيلة حياة الأخوين، المهاجر، والأنصاريّ، على الرغم من توقفها من الناحية الشرعية بأمر إلَهيّ. لأنّ هؤلاء الإخوة أصبحوا يتوارثون دون أقاربهم في الدّم. حيث قال الله سبحانه وتعالى مادحاً الفئتين من المهاجرين والأنصار: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا مَعَكُمْ، فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ، وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ. إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.) (الأنفال ٨/ ٧٤-٧٥)

٤٤٦ــ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٢٢، وانظر ص ٣٣ حيث فيها روايات أخرى.
٤٤٧ــ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٨٣.
٤٤٨ــ ابن حجر، فتح الباري، ج ٧، ص ٣١٧.
٤٤٩ــ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، ص ص ٢٧٠-٢٧١.

وقال جَلَّ وعلا في آية آخرى، مؤكّداً القرابة بين أولي الأرحام: (اَلنَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ، وَأُولُو الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ، إِلاّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً، كانَ ذَلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً.) (الأحزاب ٦/٣٣)

وبناء على أخوَّة الإيمان، والإسلام، قاسم الأنصارُ المهاجرين، بيوتهم وأموالهم، ولكن المهاجرين رفضوا ذلك بإباء وشمم، وقاموا يعملون مع إخوانهم في الدين والإسلام من الأنصار في الزراعة، والتجارة، حتّى استقام حالهم، واعتبروا ما أخذوه من إخوتهم الأنصار دَيْناً عليهم، ردّوه لهم فيما بعد، عندما "قسم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أموال بني النّضير بين المهاجرين خاصّة، إلاّ أنّه أعطى منها أبا دجانة، سِماك بن خَرَشَة، وسهل بن حُنَيْف، وكانا فقيرين. وإنّما قسمها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين المهاجرين، لأنّهم إذ قدموا المدينة، شاطرتهم الأنصار ثمارها، وعلى ذلك بايعوا ليلة العقبة على نُصرته، ومواساة أصحابه. فردّ المهاجرون على الأنصار ثمارهم."[٤٥٠]

ولنأخذ على سبيل المثال، الصحابي، المهاجر، عبد الرحمن بن عوف، وأخاه في الله، الصحابي، الأنصاري، سعد بن الربيع، الّذي شاطره ماله، وبيته، لدرجة أنه كان على استعداد أن يشاطره زوجتيه، كما روى البخاري:
" لمّا قدم [المهاجرون] المدينة، آخى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع. قال [سعد] لعبد الرحمن: إنّي أكثر الأنصار مالاً، فأقسِمُ مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسَمِّها لي أطلّقها، فإذا انقضت عِدَّتها فتزوَّجها.
قال [عبد الرحمن]: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟
فدلُّوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلاّ ومعه فضل من أَقِطٍ وسمن، ثمّ تابع الغُدُوَّ، ثمّ جاء يوماً وبه أثر صُفْرة، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: مَهْيَمْ!

٤٥٠ــ ابن عبد البر، الدُّرَر في اختصار المغازي والسِّيَر، تحقيق شوقي ضيف، ١٩٦٦، ص ١٧٥.

قال: تزوَّجتُ. قال: كم سُقْتَ إليها؟ قال: نَواةً من ذهب."[٤٥١]

ما أنبل هذه المشاعر الأخوية المفعمة بالحبّ والتضحية والإيثار، وكانت مشاعر عبد الرحمن بن عوف على نفس المستوى من النبل، والإباء، والشَّمَم، فقال، كما روى البخاري: "بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟"
وهكذا حدث، ذهب عبد الرحمن بن عوف إلى السوق وتاجر، وربح، واستمرَّ في تجارته، حتّى صار من أكثر المسلمين مالاً.
فكان من الأنصاريّ الإيثار، ومن المهاجر التعفُّف، وعزّة النفس.

وروى البخاري عن أبي هريرة: "قالت الأنصار [للنبيّ]: اقسم بيننا وبينهم النخل!
قال: لا.
قال: تَكْفُوننا المؤونة وتُشركوننا في التمر.
قالوا: سمعنا وأطعنا."[٤٥٢]

هؤلاء الأنصار الّذين آوَوا ونصروا، مدحهم الله سبحانه وتعالى بقوله: (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدّارَ وَالإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ، يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ، وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِّمّا أُوتُوا، وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.) (الحشر ٩/٥٩)

وعَمَلُ الرسول صلّى الله عليه وسلّم في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في المدينة، قبل أربعة عشر قرناً، كان أوّل نظام للتّكافل الاجتماعي أوجدته سلطة على وجه الأرض.
ولتمكين أواصر الأخوّة ولتوثيق الروابط الاجتماعية بين المسلمين في المدينة، كان أوّل عمل بدأه الرسول صلّى الله عليه وسلّم، هو بناء المسجد، وشارك هو بنفسه في البناء، ليكون مركز الأمّة، الديني، والاجتماعي، والعلمي، والسياسي،

٤٥١ــ البخاري، صحيح، ج ٣، ٦٦ ــ كتاب فضائل الصحابة، ٣٣ ــ باب إخاء النبي بين المهاجرين والأنصار، حديث ٣٥٦٩، ص ١٣٧٨. وانظر ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣، ص ١٢٥و١٢٦.
٤٥٢ــ البخاري، صحيح، ص ١٣٧٨، حديث ٣٥٧١.

والحربي، حتى والطّبي، حيث ضرب الرسول صلّى الله عليه وسلّم خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رُفَيْدَة في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين."[٤٥٣]

ومنذ ذلك الوقت أصبح المسجد قلب الأمّة النابض. وحذا المسلمون حَذْوَ الرسول صلّى الله عليه وسلّم في ذلك عندما فتحوا البلاد، ومصَّروا الأمصار وبنوا المدن الإسلامية الجديدة، فكان أوّل بناء أقاموه هو المسجد، ثمّ بنوا المدينة حوله، كما فعل الخليفة العبّاسي الثاني، أبو جعفر المنصور عندما بنى مدينة بغداد.

وكان أوّل ما قال الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم لأهل المدينة: (يا أيُّها النّاسُ! أفْشُوا السَّلامَ، وَأطْعِمُوا الطَّعامَ، وَصِلُوا الأرْحامَ، وَصَلُّوا باللَّيْلِ وَالنّاسُ نِيامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بسَلامٍ.)[٤٥٤]

ما أروع هذه الرسالة الإنسانية السامية، إنَّها يجب أن تكون شعارًا تتبناه الأمم المتحدة، وتطلقه في جميع أرجاء العالم. إن هذا يصح ويمكن تحقيقه لو كان هناك مسلمون لهم وزن في السياسة العالمية.

وقال صلّى الله عليه وسلّم في أوّل خطبة خطبها في المدينة: (فَأكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ اللهِ، وَاعْمَلُوا لِما بَعْدَ الْمَوْتِ، فَإنَّهُ مَنْ أصْلَحَ ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ يَكْفِهِ ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ النّاسِ، ذَلِكَ بأنَّ اللهَ يَقْضِي عَلى النّاسِ وَلا يَقْضُونَ عَلَيْهِ، وَيَمْلِكُ مِنَ النّاسِ وَلا يَمْلِكُونَ مِنْهُ، أللهُ أكْبَرُ، وَلا قُوَّةَ إلاّ باللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.)[٤٥٥]

وكما أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم أوجد أوّل نظام للتّكافل الاجتماعي، فإنّه أوجد أوّل نظام للتعايش الدّيني، السلمي، في العالم بدعوته اليهود في الوثيقة المسمّاة "عهد المدينة" للعيش بسلام جنباً إلى جنب مع المسلمين في المدينة، كما روى أكبر مؤرِّخي السيرة، محمد بن إسحاق: "كتب رسول الله صلّى الله عليه

٤٥٣ــ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٥٨٦.

٤٥٤ــ الدارمي، سنن، ج ١، ص ص ٣٤٠-٣٤١؛ الحاكم، المستدرك، ج ٤، ص ١٦٠.

٤٥٥ ــ ابن كثير، مختصر السيرة، ص ١٧٤.

وسلّم كتاباً بين المهاجرين والأنصار وَادَعَ فيه اليهودَ، وعاهدهم، وأقرَّهم على دينهم وأموالهم، وٱشترط عليهم وشرط لهم. وحافظ الرسول صلّى الله عليه وسلّم على هذه الإتِّفاقية مع اليهود، حتّى نقضوها بخيانتهم له وتآمرهم عليه وعلى المسلمين مع مشركي قريش وغيرهم من مشركي العرب، المرّة تلو المرّة، حتّى أجلاهم عن المدينة."[٤٥٦]

وقال ابن إسحاق أيضًا: "فلمّا اطمأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة، وٱجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، وٱجتمع أمر الأنصار، ٱستحكم أمر الإسلام، فقامت الصلاة، وفرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود، وفُرِضَ الحلال والحرام..."[٤٥٧]

عنصرا الأمن والغذاء اللذان استعملهما الله سبحانه وتعالى لنصرة قريش قبل الإسلام، كما مرَّ معنا، استعملهما الله سبحانه وتعالى لعقاب الأمم الظالمة، الكافرة بأَنْعُم الله، حيث قال عزَّ من قائل: (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ، فَأَذاقَها اللهُ لِباسَ الْجُوعِ والْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ.) (النحل ١١٢/١٦)

ولإضعاف قوّة قريش العسكرية والسياسية ضرب الرسول صلّى الله عليه وسلّم حصاراً اقتصادياً على قريش بقطع طرق مواصلاتها التجارية بين مكّة والشام، التي كانت تمرّ بالمدينة، أو قريباً منها، ممّا أدّى إلى معركة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة، هذه المعركة التي انتصر فيها المسلمون على قريش لأوّل مرّة منذ ظهور الإسلام قبل خمسة عشر عاماً في مكّة. ونجحت خطّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم في إضعاف قريش اقتصادياً، حيث قطع عليهم طريق تجارتهم إلى الشام، كما روى الواقدي: "كانت قريش قد حَذِرَتْ طريق الشام أن يسلكوها، وخافوا من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه، وكانوا قوماً تجّاراً.

٤٥٦ــ ابن كثير، مختصر السيرة، ص ١٨٣.

٤٥٧ــ ابن كثير، مختصر السيرة، ص ١٨٣.

فقال صفوان بن أميّة: إنّ محمداً وأصحابه قد عوَّروا علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه؛ لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعهم، ودخل عامّتهم معه، فما ندري أين نسلك؛ وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في دارنا هذه ما لنا بها نَفاق؛ إنّما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف، وفي الشتاء إلى أرض الحبشة."[٤٥٨]

والسبب في قطع طريق تجارة قريش، الّتي تمرّ في الساحل، هو، أنّه في صلح الحديبية، في السنة السادسة للهجرة وافق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أنّه من أتاه من قريش بغير إذن وليِّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممَّن مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم تردّه عليه. والتزم الرسول صلّى الله عليه وسلّم بهذه الإتفاقية، وردَّ بعض المسلمين من الشباب الّذين قدموا إليه من غير إذن أوليائهم، ومنهم، أبو جندل بن سهيل بن عمرو، ولمّا أرجعه جعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين! أرَدُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني!
فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (يا أبا جندل! إحتسب! فإنّ الله جاعل لك ولمن معك من المُستَضعَفين فرَجاً ومَخْرَجاً، إنّا عقدنا بيننا وبين القوم عقداً وصلحاً، وأعطيناهم على ذلك عهداً، وأعطونا عهداً، وإنّا لا نغدر بهم.)[٤٥٩]

فلمّا قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة، جاءه أبو بصير، شابّ من قريش. قال ابن إسحاق في حديثه: أبو بصير، عُتْبَة بن أسَيْد بن جارية، وهو مسلم، وكان ممّن حُبس بمكة، فلمّا قدم على رسول الله، كتب فيه أزهر بن عوف والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبعث رجلاً، ومعه مولىً لهم، فقدما على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بكتاب الأزهر والأخنس، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: يا أبا بصير! إنّا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإنّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً.

٤٥٨ــ الواقدي، المغازي، ج ١، ص ٢١٧؛ ابن حبّان، السيرة النبوية، ص ص ٢١٦-٢١٧.

٤٥٩ــ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ص ٦٣٥-٦٣٦؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، ص ص ٢٢٠-٢٢١.

قال: فانطلق معهما حتى إذا كان بذي الحُلَيْفة، جلس إلى جدار، وجلس معه صاحباه، فقال أبو بصير: أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ قال: نعم. قال: أنْظُرُ إليه! قال: إن شئت! فاستلَّه أبو بصير، ثمّ علاه به حتى قتله، وخرج المولى سريعاً حتى أتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو جالس في المسجد، فلمّا رآه رسول الله طالعاً، قال: هذا رجل قد رأى فزعاً.

فلمّا انتهى إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: ويلك! ما لك؟

قال: قتل صاحبكم صاحبي؛ فوالله مابرح حتى طلع أبو بصير متوشِّحاً السيف، حتّى وقف على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: يا رسول الله! وَفَتْ ذِمَّتك، وأدِّيَ عنك، أسلمتني، ورددتني إليهم، ثمّ أنجاني الله منهم. فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: ويل امِّه مُسْعِرُ حرب لو كان معه رجال!

فلمّا سمع ذلك عرف أنّه سيردُّه إليهم.

قال: فخرج أبو بصير حتى نزل بالعيص من ناحية ذي المَرْوَة على ساحل البحر، بطريق قريش الذي كانوا يأخذون إلى الشام.

الحصار الاقتصادي

وبلغ المسلمين الذين كانوا احتُبسوا بمكّة قولُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأبي بصير: "ويل امِّه مُسْعِر حرب لو كان معه رجال"، فخرجوا إلى أبي بصير بالعيص، وينفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو، فلحق بأبي بصير، فاجتمع إليه قريب من سبعين رجلاً منهم؛ فكانوا قد ضيَّقوا على قريش؛ فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام، إلاّ اعترضوا لهم، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم.
فأرسلت قريش إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم يناشدونه بالله والرّحِم لمَا أرسل إليهم؛ فمن أتاه فهو آمن، فآواهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقدموا عليه المدينة.[٤٦٠]

هذا هو شباب محمد المؤمن المجاهد، الذي حصل على حرِّيَّته بإيمانه وجهاده وقهر العدو، الغاشم، الظالم، لمن أراد الحياة الحرّة الكريمة، حيث أنّ سبعين شابّاً، مسلماً، مؤمناً فقط، أرغموا قريش بجبروتها، وطغيانها، على التسليم لهم بحقّهم في الحياة الحرَّة الكريمة.

وضعت قريش في صلح الحديبية على الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن يردَّ من جاء إليه من الشباب مسلِماً بغير إذن مواليه، ووفى لهم الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم بشرطهم، وثار المسلمون لذلك، لكن الله جلَّت قدرته، يهيِّء الأسباب لنصرة دينه، ولنصرة من ينصرون دينه، كما قال جلَّ وعلا: (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ.) (محمد ٧/٤٧)

من هذه الأسباب الّتي هيَّأها الله سبحانه وتعالى، هذه المرَّة، حماس الشباب المسلم، المؤمن بربّه ودينه، إيماناً لا يتزعزع، هذا الشباب الّذي عمل على قطع

٤٦٠ــ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ص ٦٣٨-٦٣٩؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، ج ٢، ص ص ٢٤-٢٥.

شريان الحياة لقريش بتعرُّضه لقوافل تجارتها، وضَرْبها بأعزّ ما تملك، وهو اقتصادها، ومن أجل الحفاظ على تجارتها ومالها، رضخت قريش، وأرسلت تناشد الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالله والرحم أن يأخذ الشباب، وبهذا ألغت الشرط الذي وضعته على الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وتنازلت قريش ليس عن شرطها فقط، بل عن شبابها وقتلاها. ونصر الشبابُ المؤمنُ المجاهدُ اللهَ، فنصره اللهُ: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إنَّ اللهَ لَقويٌّ عَزيزٌ.) (الحج ٢٢/٤٠)

وهكذا جعل الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، ومعه الشباب، المسلم، المؤمن، المجاهد، قريشاً تذوق مرارة ما فعلته مع المسلمين، عندما ألجأت بني هاشم بالقوّة إلى شِعب أبي طالب في مكّة، وفرضت عليهم حصاراً اقتصادياً، واجتماعياً خانقاً، لمدّة ثلاث سنوات، ولكن الرسول صلّى الله عليه وسلّم ومن معه من بني هاشم، الّذين تسلّحوا بإيمانهم الصادق وبإسلامهم، صبروا، وصمدوا، ولم تلن لهم قناة، وفي النهاية كانوا هم الأعْلَوْن.

ظنّت قريش أنّ سلاح الجوع سيكسر من عزيمة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ومن آزره من بني هاشم وبني المطّلِب، "ولمّا هاجر المسلمون إلى الحبشة، استقبلهم النجاشي وأكرمهم. وبلغ أهل مكّة فعل النجاشي بالقادمين عليه وإكرامهم، فساء ذلك قريشاً، وائتمروا في أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه ألاّ يُناكِحوا بني هاشم وبني المطّلب ولا يبايعوهم ولا يُكلّموهم ولا يجالسوهم، حتى يُسلِموا إليهم محمداً صلّى الله عليه وسلّم. وكتبوا بذلك صحيفة، وختموا عليها ثلاثة خواتيم، وعلّقوها في سقف الكعبة. وقيل غير ذلك.

وانحازت بنو هاشم وبنو المطّلب، مؤمنهم وكافرهم ليلة هلال المحرّم سنة سبع من النُّبُوَّة ـ إلاّ أبو لهب وولده، فإنّهم ظاهروا قريشاً على بني هاشم ـ فصاروا في شِعْب أبي طالب محصورين، مضيَّقاً عليهم أشدَّ التضييق نحواً من ثلاث سنين، وقد قطعوا عنهم المِيرة والْمُدّة، فكانوا لا يخرجون إلاّ من موسم إلى موسم حتى بلغهم الجَهْد.

وكان حكيم بن حِزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى [إبن أخي خديجة] يأتيه العير تحمل الحنطة من الشأم، فيُقْبلها الشِّعْب، ثمّ يضرب أعجازها، فيدخل عليهم، فيأخذون ما عليها من الحنطة."[٤٦١]

[٤٦١]ــ المقريزي، إمتاع الأسماع، ج ١، تحقيق محمود شاكر، الطبعة الثانية، ص ص ٢٥-٢٦.

عامل الغذاء في حياة الشعوب

إنَّ عامل الغذاء، عامل فعّال في حياة الأفراد، والشعوب، والدُّوَل، استُعمِل في الماضي كوسيلة للضغط، ومازال يستعمل في العصر الحاضر، وها نحن نرى الدُّوَل عندما تتعادى، وتتحارب، تحاول فرض مقاطعة وحصار اقتصادي على خصومها، وما فعلته الولايات المتحدّة الأمريكية وحلفاؤها مع العراق من الحصار الاقتصادي امتدَّ واشتدَّ حتى سقط العراق صريعًا تحت احتلال أمريكي غاشم دمَّره تدميرًا تامًّا، وهذه كوبا تعاني من حصار اقتصادي خانق وطويل مازالت تفرضه عليها الولايات المتحدة من أوائل سني الستينات حتى اليوم. وتعمل أمريكا على فرض حصار اقتصادي خانق على إيران.

فالجوع سلاح فتّاك في تحطيم معنويات الأفراد والشعوب والدول منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا وإلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها، وهذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يذمّ الجوع بدعائه إلى الله سبحانه وتعالى:

(أَللَّهُمَّ! إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيانَةِ، فَإِنَّها بِئْسَتِ الْبِطانَةُ.)[٤٦٢]

كذلك الجوع عامل من أهمّ العوامل التي تحرِّك الثورات على الحكومات، وقد عبَّر عنه الصحابيُّ الجليل، أبو ذرّ الغفاري، بقوله المشهور: "عَجِبْتُ لِمَنْ لا يَجِدُ الْقُوتَ في بَيْتِهِ، كَيْفَ لا يَخْرُجُ عَلَى النّاسِ شاهِراً سَيْفَهُ."[٤٦٣]

٤٦٢ـ النسائي، سنن، طبعة الحلبي، القاهرة، ١٣٤٣هـ/١٩٦٤م، ج ٨، باب الإستعاذة، ص ٢٣١؛ ابن ماجة، سنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ج٢، كتاب الأطعمة (٥٣)، ص١١١٣، حديث ٣٣٥٤.

٤٦٣. للأسف لم نستطع العثور على مصدرٍ لهذا القول المشهور في كل ما بحثنا من مصادر.

هذا الجوع الذي حمل بعض العرب قبل الإسلام أن يقتلوا أولادهم، ويَئِدُوا بناتهم، حتى نهاهم الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله: (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيّاهُمْ.) (الأنعام ١٥١/٦)
وقال عزَّ من قائل: (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْئاً كَبيراً.) (الإسراء ٣١/١٧)

يُلاحَظ في الآيتين السابقتين، أنّ الله يرزق الآباء مع الأطفال في الآية الأولى، ويرزق الأطفال مع الآباء في الآية الثانية، وبعبارة أخرى، أنّ الرزق يأتي من عند الله بسبب الأطفال مرّة، وبسبب الآباء مرّة. أي أنّ الله يرزق الجميع، فلا داعي لقتل أحد خوف الجوع، والنقص في الموادّ الغذائيّة.

وفي "عام الرمادة"، عام القحط والجوع في المدينة، الّذي حدث عام ثمانية عشر للهجرة، عندما نضبت الموارد الغذائية وجاع الناس، عطَّل عمر بن الخطاب، خليفة المسلمين حَدَّ السرقة، وأوقف تنفيذه على الناس الذين كانوا يسرقون الطعام والثمار لسدِّ جوعهم وجوع عيالهم، عملاً بمبدأ "الضرورات تبيح المحظورات."